المذهبية الإسلامية الاقتصادية

في فكر ابن خلدون

أ.د. رفعت السيد العوضي

أستاذ الاقتصاد - كلية التجارة

جامعة الأزهر

تقديم

البحث الذي نقدمه يمثل محاولة للتعرف على آراء ابن خلدون في المذهبية الإسلامية الاقتصادية، ونورد بعض الملاحظات تمهيداً لهذا البحث.

أ - الدراسات الاقتصادية على وجه العموم تقسم إلى قسمين رئيسيين: القسم الأول يشمل الدراسات التي تدخل في علم الاقتصاد ويشمل القسم الثاني الدراسات الداخلة في المذهب الاقتصادي. ولا شك أن كلا من القسمين تتفرع عليه كثير من فروع الدراسات الاقتصادية.

ب - ابن خلدون له مساهمات متنوعة في الاقتصاد، نقصر دراستنا على جانب واحد وهو الذي يدخل في المذهبية الاقتصادية.

ج - نحاول أن نعطي تعريفاً مبسطاً بمصطلح المذهب، قيل عن المذهب إنه منهج لفهم الدين[1]. ربط المذهب بالدين هو ما ذهبت إليه أيضاً دائرة المعارف الأمريكية[2]، وإن كان التعريف المقبول للمذهب هو الذي يعممه بحيث يعني: المذهب هو المعتمد الذي يذهب إليه [3].

د - عنوان البحث المذهبية ولم يعنون بالمذهب، وذلك لأننا لا نستهدف دراسة كل عناصر المذهب الاقتصادي، وإنما نستهدف اكتشاف محور الإرتكاز المذهبي المتعلق بالاقتصاد عند ابن خلدون؛ نعني بذلك تحديد موقفه من الفردية والجماعية، وأيضاً فكرة التطور التي أصبحت لازمة من لوازم دراسة المذاهب الاقتصادية.

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب ومؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، ص١٦٧٥.

(٢) The Encyclopedia Americana, International Edition, Vol.9 , p. 229

(٣) ابن منظور (أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم) لسان العرب، جـ١، دار صادر للطباعة والنشر، ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٧٤هـ، ١٩٥٥م، ص٣٤٩.

هـ - حرصنا أن يظهر في العنوان مصطلح إسلام، ذلك لأن ابن خلدون فقيه من فقهاء الإسلام، بل تولى القضاء، وهو بهذا يعرض رأياً في إطار الشريعة الإسلامية بأقسامها الثلاثة: العقيدة والفقه والأخلاق، يعني ذلك أن المذهبية الاقتصادية التي نكتشفها عند ابن خلدون تمثل محاولة لصياغة المذهبية الاقتصادية الإسلامية.

١ - التعريف بابن خلدون وبكتابه

١ - ١ : الكتاب : مقدمة في طبيعة العمران [1].

١ - ١ - ١ : كتاب المقدمة هو الجزء الأول من كتاب ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والمعجم والبربر ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر. ضمن ابن خلدون المقدمة منهجه العلمي على نحو عام، وفي ثنايا كتابته عن المنهج كتب عن موضوعات كثيرة. يمكن القول بعبارة أخرى إن ابن خلدون وهو يكتب عن موضوعات في مقدمته ضمن ذلك منهجه، إن كلاً من التعبيرين صحيح.

١ - ١ - ٢ : بشأن الموضوعات التي كتب عنها ابن خلدون في مقدمته نرى أنه بدلاً من تتبع الموضوعات التي تضمنها الكتاب ، فإننا نحيل إلى واحد من المؤتمرات التي عقدت عن ابن خلدون - وهي كثيرة، والتي شارك فيها علماء لهم اعتبارهم في تخصصاتهم. نحيل إلى المؤتمر الذي عقده المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة في الفترة من ٢-٦ يناير ١٩٦٢م. لقد دارت المناقشة في هذا المؤتمر على محاور وفي كل محور عدد من الموضوعات. نكتفي بالإشارة إلى موضوعات المحاور.

- ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع.
- ابن خلدون الفيلسوف.

---

(١) النسخة التي نحيل إليها في دراسة المقدمة تحمل البيانات التالية: مقدمة ابن خلدون، دار القلم ، الطبعة الخامسة ١٩٨٤.

- المنهج الوصفي عند ابن خلدون.
- آراء ابن خلدون في الاقتصاد والسياسة.
- ابن خلدون المؤرخ.
- ابن خلدون والدين
- ابن خلدون المربي.
- ابن خلدون والأدب.

١ - ١ - ٣ : تثبيت هذه المحاور بالموضوعات الداخلية التي تضمنتها الموسوعة المعرفية لابن خلدون. بشأن آرائه الاقتصادية فإنها لا تحصر في المحور الذي يحمل العنوان: آراء ابن خلدون في الاقتصاد والسياسة وإنما توجد في كثير من المحاور؛ فالاقتصاد موجود في الحديث عن علم الاجتماع وفي المنهج وفي الدين.

١ - ١ - ٤ : بشأن كتاب المقدمة لا نبالغ إذا قلنا إنه أهم ما في تراث المسلمين العلمي عن الاقتصاد ، وهذه الأهمية معترف بها في عالمنا الإسلامي بل وفي غير العالم الإسلامي.

١-٢ - ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦م)

١ - ٢ - ١ : ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن ابن محمد بن جابر بن خلدون الإشبيلي الحضرمي القاضي ولي الدين المؤرخ المالكي. ولد سنة ٧٣٢ بتونس وتوفى بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ[١] . عمر ٧٤ سنة، يمكن أن نقسم عمره إلى ثلاث مراحل متميزة[٢] .

- مرحلة نشأة وتكوين قضاها كلها في تونس، ومدتها ٢٤ سنة.

---

(١) إسماعيل باشا البغدادي، هداية العارفين-أسماء المؤلفين وآثار المصنفين - هداية العارفين باسماء المؤلفين وآثار المصنفين، مكتبة المثنى، بغداد ، ص٥٢٩.

(٢) الدكتور إبراهيم مدكور، ابن خلدون -مؤتمر مهرجان ابن خلدون، منشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ١٩٦٢م ، القاهرة، ص٥٦٨.

- مرحلة نضال سياسي تنقل فيها بين المغرب الأوسط والأقصى والأندلس وهي أطول قليلاً من سابقتها، ومدتها ٢٦ سنة.
- مرحلة هدوء نسبي استقر فيها في القاهرة وإن لم يفته أن يزور الشام والحجاز، شغل خاصة بالتدريس والقضاء، وهي الأربع والعشرون سنة الأخيرة من حياته.

١ - ٢ - ٢ : يمكن القول إن ابن خلدون عاش عمراً حقيقياً أطول بكثير من عمره الزمني، العمر الحقيقي يقاس بالأعمال أما العمر الزمني فيقاس بوحدات الزمن. لقد توزعت حياته بين التأليف وتولي وظائف عامة لها أهميتها وسفارات في مهمات رسمية.

١ - ٢ - ٣ : من مؤلفاته[١]: تلخيص المحصل لفخر الدين الرازي وهو كتاب في الرحلات وشرح الرجز لابن الخطيب وهو كتاب في الأصول، شرح قصيدة ابن عبدون وهي قصيدة البرده ، ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر (سبع مجلدات) وهو كتاب في التاريخ.

١ - ٢ - ٤ : من الأعمال السياسية التي تقلدها[٢]: صاحب العلامة وصاحب الأشغال وصاحب الحجابة. ومن سفاراته الرسمية: سفارته إلى ملك قشتاله ليفاوض الغرناطيين. كما اشترك في محاربة تيمورلنك وفاوضه حين حاضر المسلمين في دمشق. من الوظائف العامة التي تولى وظيفة القضاء ووظيفة الافتاء في مصر[٣].

جاءت وفاته في مصر في عام ٨٠٨هـ [٤] الموافق ١٧ مارس ١٤٠٦م ودفن قرب باب النصر بالقاهرة ، ولم يكشف عن مدفنه بعد [٥].

---

(١) إسماعيل باشا البغدادي، هداية العارفين ، مرجع سابق، ص٥٢٩.
(٢) د. إبراهيم مدكور ، ابن خلدون ، مرجع سابق، ص٥٦٩.
(٣) د. إبراهيم مدكور ، ابن خلدون، مرجع سابق، ص٥٦٨ - ٥٧١
(٤) إسماعيل باشا البغدادي ، مرجع سابق، ص٥٢٩.
(٥) د.إبراهيم مدكور، مرجع سابق ، ص٥٧١.

١ - ٢ - ٥ : كان ابن خلدون مشهوراً في عصره، ونعتقد أنه أصبح أكثر شهرة بعد وفاته فابن خلدون له شهرته الواسعة في عصرنا ليس في عالمنا الإسلامي بل في العامل الأوروبي والعالم الأمريكي، بل إن له شهرته في عالم الشرق البعيد في اليابان.

كان لابن خلدون نفوذ وتأثير في عصره علمياً وسياسياً، ونعتقد أن ابن خلدون أصبح بعد وفاته أكثر تأثيراً في المجالات العلمية ودليلنا على ذلك المؤلفات الكثيرة عنه والتي تتحدث عن تأثيره ودوره في كثير من العلوم.

كان ابن خلدون في عصره فخر أهله، وأصبح بعد وفاته فخر أمته الإسلامية لعبقريته الفذة ومساهماته العلمية الرائدة والعميقة ، وهي مساهمات باللسان العربي، وبهذا تدخل مساهمته في تراث المسلمين العلمي في الاقتصاد في جزئها المتميز وهو المساهمة العربية.

٢ - ابن خلدون وتأسيس مذهب الحرية الاقتصادية

٢ - ١ : ابن خلدون والمذهب الاقتصادي وكذا النظام الاقتصادي يحتاج إلى مدخل.

٢ - ١ - ١ : في موضوع ابن خلدون والمذهب الاقتصادي ، وكذا النظام الاقتصادي يوجد جانب موضع إتفاق وجانب موضع إختلاف. الجانب موضع الإتفاق هو أن ابن خلدون له مساهمة في تأسيس مذهب اقتصادي، وكذا نظام اقتصادي، أما الجانب موضع الإختلاف فهو طبيعة المذهب الاقتصادي وكذا النظام الاقتصادي الذي عمل عليه ابن خلدون.

ابن خلدون محل اعتبار عند أنصار مذهب الحرية الذي يتأسس عليه النظام الرأسمالي، وهو أيضاً محل اعتبار عند أنصار المذهب الجماعي الذين يأخذون بالتفسير المادي.

٢ - ١ - ٢ : أنصار مذهب الحرية يثبتون لابن خلدون أنه كان ضد تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية وأنه بهذا رائد للحرية الاقتصادية[١].

٢ - ١ - ٣ : أنصار المذهب الجماعي يعتقدون أن ابن خلدون أسس تفسيره للتاريخ على العنصر المادي أي الاقتصادي ويعتبرونه رائد الفلسفة المادية لتفسير التاريخ. وقد كان ابن خلدون محل اهتمام واسع في الاتحاد السوفيتي (الذي انهار) لهذا الاعتبار، وفي إطار هذا الاهتمام نشروا عنه دراسات كثيرة، بل يقال إنهم أسسوا مركزاً بحثياً يحمل اسمه[٢].

٢ - ٢ : أمام هذا الاستقطاب المذهبي المتباين لابن خلدون ، فإن الأمر يكون في حاجة لدراسة متأنية لفكرة تحديد هويته المذهبية .
سوف نحاول المساهمة في هذا الموضوع ، وذلك باستقراء بعض ما جاء في كتاب المقدمة.

النص الأول:

كتب ابن خلدون في كتابه المقدمة في الفصل الأربعين تحت عنوان في أن التجارة من السلطان مضرة بالرعية ومفسدة للجباية.

« إعلم أن الدولة إذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة الفوائد والنفقات وقصر الحاصل من جبايتها عن الوفاء بحاجاتها ونفقاتها واحتاجت إلى مزيد المال والجباية فتارة توضع المكوس على بياعات الرعايا وأسواقهم كما قدمنا ذلك في الفصل قبله وتارة بالزيادة في ألقاب المكوس إن كان قد

---

(١) من أهم الأبحاث التي صنفت فكر ابن خلدون في مذهب الحرية الاقتصادية البحث التالي: - الدكتور محمد حلمي مراد، أبو الاقتصاد- ابن خلدون، ضمن أبحاث مهرجان ابن خلدون، مركز البحوث الاجتماعية والجنائية، مرجع سابق، ص٣٠٥ -٣١٧، وقد اعتبر أن ابن خلدون مؤسس مذهب الاقتصاد المرسل.

(٢) قد تكون من أوسع الدراسات المنشورة عن ابن خلدون في الاتحاد السوفيتي السابق:
- دكتورة سفيتلانا بانييفا، العمران البشري في مقدمة ابن خلدون، ترجمه إلى اللغة العربية رضوان إبراهيم، الناشر الدار العربية للكتاب ، ليبيا، ١٣٩٨/١٩٧٨.

استحدث من قبل وتارة بمقاسمة العمال والجباة لما يرون أنهم قد حصلوا على شيء طائل من أموال الجباية لا يظهره الحسبان وتارة باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان على تسمية الجباية لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلات مع يسارة أموالهم وأن الأرباح تكون على نسبة رؤوس الأموال فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع والتعرض بها لحوالة الأسواق ويحسبون ذلك من إدرار الجباية وتكثير الفوائد وهو غلط عظيم وإدخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة فأولاً مضايقة الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع وتيسير أسباب ذلك فإن الرعايا متكافئون في اليسار متقاربون ومزاحمة بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب وإذا رافقهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثيراً منهم فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد ثم إن السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك إذا تعرض له غضاً أو بأيسر ثمن أو لا يجد من يناقشه في شرائه فيبخس ثمنه على بائعه ثم إذا حصل فوائد الفلاحة ومغلها كله من زرع أو حرير أو عسل أو سكر أو غير ذلك من أنواع الغلات وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع فلا ينتظرون به حوالة الأسواق ولا نفاق البياعات لما يدعوهم إليه تكاليف الدولة فيكلفون أهل تلك الأصناف من تاجر أو فلاح بشراء تلك البضائع ولا يرضون في أثمانها إلا القيم وأزيد فيستوعبون في ذلك ناض أموالهم وتبقى تلك البضائع بأيديهم عروضاً جامدة ويمكثون عطلاً من الإدارة التي فيها كسبهم ومعاشهم وربما تدعوهم الضرورة إلى شيء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأبخس ثمن وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يذهب رأس ماله فيقعد عن سوقه ويتعدد ذلك ويتكرر ويدخل به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الأرباح ما يقبض آمالهم عن السعي في ذلك جملة ويؤدي إلى فساد الجباية فإن معظم الجباية إنما هي من الفلاحين والتجار ولا سيما بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها فإذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة وقعد التجار عن التجارة ذهبت الجباية جملة أو دخلها النقص المتفاحش ، وإذا

قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الأرباح القليلة وجدها بالنسبة إلى الجباية أقل من القليل ثم إنه ولو كان مفيداً فيذهب له بحظ عظيم من الجباية فيما يعانيه من شراء أو بيع فإنه من البعيد أن يوجد فيه من المكس ولو كان غيره في تلك الصفات لكان تكسبها كلها حاصلاً من جهة الجباية ثم فيه التعرض لأهل عمرانه واختلال الدولة بفسادهم ونقصهم فإن الرعايا إذا قعدوا عن تثمير أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات وكان فيها تلاف أحوالهم فافهم ذلك (ص٢٨١-٢٨٢).

الذين كتبوا عن ابن خلدون استندوا إلى النص السابق في القول بأنه مع الحرية الاقتصادية. سوف نقوم بتحليل هذا النص وذلك بهدف تحديد طبيعة الحرية الاقتصادية التي يمكن أن تنسب لابن خلدون.

أولاً: النص صريح في أن ابن خلدون ضد أن تكون الدولة تاجراً، وقد صرح بالأضرار الاقتصادية التي تترتب على التجارة من السلطان، واستخدم أمثلة ومصطلحات متلائمة مع عصره.

ثانياً: في معرض حديثه عن التجار والزراع كتب النص التالي: «فإن الرعايا متكافئون في اليسار متقاربون ومزاحمة بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب» تحليل هذا النص يعطي النتيجة التالية: يدافع ابن خلدون عن المنافسة بين المنتجين.

ثالثاً: ما جاء في أولاً يجعل ابن خلدون من أنصار الحرية الاقتصادية في مجال التبادل ، وما جاء في ثانياً يجعله من أنصار الحرية الاقتصادية في مجال الإنتاج ويعنى هذا أن ابن خلدون من أنصار الحرية الاقتصادية الكاملة.

رابعاً: في الفكر الاقتصادي الأوروبي يقال عن مذهب الحرية الاقتصادية إنه نظام: دعه يعمل دعه يمر[1] ويعني هذا المصطلح أن الحرية الاقتصادية

---

(١) ولد هذا المصطلح في الاقتصاد الأوروبي باللغة الفرنسية Laissaz Fair - Laissez Passer والكتابات الاقتصادية باللغات المختلفة تستخدمه في لغته الفرنسية وقد ولد هذا

لها شقان؛ إنتاج (Laissez-Fair) وتبادل (Laissez-Passer) . وقد ولد هذا المصطلح مع مدرسة الطبيعيين. وهي مدرسة ظهر كبار مفكريها في الربع الثالث من القرن الثامن عشر. المقابلة بين فكر ابن خلدون والفكر الأوروبي تعطي النتيجة التالية: دافع ابن خلدون عن الحرية الاقتصادية في شقيها الإنتاج والتبادل وأن مساهمته سابقة على المساهمة الأوربية بحوالي أربعة قرون، ويترتب على هذا أنه يعقد لابن خلدون تأسيس مذهب الحرية الاقتصادية.

خامساً: عرض ابن خلدون لحالة تدخل الدولة في السوق وحصولها على السلع بأقل من ثمنها الذي تحدده المنافسة «فيبخس ثمنه على بائعه» وقد حدد النتائج الاقتصادية التي تترتب على ذلك وهي انخفاض الإنتاج «ويدخلون به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الأرباح ما يقبض آمالهم عن السعي في ذلك جملة». ابن خلدون بهذه الفكرة يكون قد تعرف على الآثار الاقتصادية التي تترتب على تدخل الدولة في الاقتصاد وعلى آثار انخفاض الأثمان على المستوى الذي تحدده المنافسة على النحو الذي عبر عنه ابن خلدون[1].

سادساً: الضرائب من الأدوات التي تتدخل بها الدولة في الاقتصاد. ابن خلدون ضد زيادة الضرائب. بل إنه تعرف على الآثار السلبية التي تترتب على زيادة الضرائب. إن زيادة الضرائب قد تؤدي إلى نقص الناتج القومي في الفترة الاقتصادية التالية وبالتالي تنخفض حصيلة الضرائب نفسها.

٢ - ٣ : بناء على التحليل للنص السابق فإن النتيجة التي تنتهي إليها المناقشة هي أن ابن خلدون أسس لمذهب الحرية الاقتصادية. لقد

المصطلح مع مدرسة الطبيعيين.

(١) ابن خلدون في هذه الفكرة يشرح حالة البلاد التي طبقت بعد ذلك بقرون الاشتراكية وعانت اقتصادياً بسبب فرض الدولة أسعاراً منخفضة، وبالتالي ضعف الحافز الاقتصادي.

دافع عن حرية الإنتاج وعن حرية التبادل ، كما كان ضد أن تكون الدولة تاجراً أو منتجاً ، كذلك كان ضد استخدام أدوات اقتصادية تخل بعمل السوق.

يمكن أن يدخل في النتيجة التي كشفت عنها المناقشة ما يتمتع به فكر ابن خلدون من الإتساق والإتلاف في موضوع الحرية الاقتصادية. إن فكرته منسجمة في عناصرها ، لأنه لم يقرر رأياً بشأن حرية عنصر من العناصر الاقتصادية يمكن أن يكون مناقضاً لرأيه في حرية عنصر آخر.

هكذا تكون فكرة ابن خلدون تشبع شرط الإنسجام الداخلي بين عناصر الحرية الاقتصادية كذلك تشبع فكرته شرط الإنسجام الخارجي مع آرائه عن العناصر الاجتماعية الأخرى.

٣ : ابن خلدون وفلسفة تفسير التاريخ

٣ - ١ : محاولة قولبة فكر ابن خلدون في فلسفة التفسير المادي للتاريخ.

التشيع المذهبي لابن خلدون يتجاذبه اتجاهان على طرفي نقيض. الاتجاه الأول يجعل ابن خلدون مؤسساً لمذهب الحرية الاقتصادية والاتجاه الثاني يجعله واضع فلسفة التفسير المادي للتاريخ، وأصحاب هذا الاتجاه ينتهون من ذلك إلى النتيجة التالية: التفسير المادي للتاريخ يجد جذوره عند ابن خلدون.

٣ - ١ - ١ : تفسير التطور التاريخي تحكمه فلسفتان؛ الفلسفة المثالية وتنسب إلى «هيجل[١]» والفلسفة المادية ويعتبر «ماركس[٢]» أكثر المفكرين الذين

---

(١) هيجل : Georg Wilhel Friedrich Hegel وهو فيلسوف ألماني ولد في ١٧٧٠م ومات في ١٨٣١.

(٢) كارل ماركس: فيلسوف واقتصادي اشتراكي، ولد في ألمانيا ١٨١٨ ومات في انجلترا في ١٨٨٣.

وظفوا هذه الفكرة توظيفاً مذهبياً.

الفلسفة المثالة تتبنى فكرة أن المجتمعات تخضع للتطور وليس للثبات، وأن التغيير يبدأ أولاً في العقل الإنساني ؛ أي في عالم الفكر وهذا يقود التغيير في عالم المادة. أما الآلية التي يتم بها التغيير فهي أن أية فكرة Thesis يكون لها نقيض Antithesis ويقوم صراع بينهما فتخلق ظاهرة جديدة هي التركيب Syntythesis.[1]

٣ - ١ - ٢ : في الفلسفة المادية تخضع المجتمعات أيضاً للتطور ولكن ماركس يعتقد أن التغيير يحدث أولاً في عالم المادة وليس عالم الفكر، إنه يؤمن أن الوجود المادي هو الذي يعمل على عقل الإنسان ولذلك تكون الأفكار هي ردود أفعال لهذه الظاهرة الخارجية[2].

٣ - ١ - ٣ : الدكتورة سفيتلانا باتييفا واحدة من مفكري الاتحاد السوفيتي السابق. كتبت دراسة موسعة عن العمران البشري في مقدمة ابن خلدون. في رأيها أن علم العمران الذي كتب عنه ابن خلدون يعني الحياة الاجتماعية وهو يعني «التساكن والتنازل في مصر أو حلة[3] للإنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش» من هذا التعريف للعمران الذي كتبه ابن خلدون تعتبر أولاً وقبل كل شيء عملاً جماعياً حقيقياً للبشر مشروطاً بالاحتياجات المادية وجميع الظواهر الباقية لحياة المجتمع في الملك والكسب والعلوم والصنائع»[4] وفي موضع آخر من كتابها كتبت «الحاجة المادية كقوة أساسية موجهة في تاريخ البشرية هي القاعدة الأولية الأولى لنظرية

---

(١) Loucks, William N; Comparative Economic Systems, Sixth edition, New Youk, Haruper Row, 1964, pp.81/2.

(٢) Ibid , pp.82/3.

(٣) يبدو أن الصواب محلة وليس حلة.

(٤) الدكتورة سفيتلانا باتييفا، مرجع سابق، ص١٨٨، ١٨٩.

ابن خلدون»[1].

إذا قبل ما قالته المؤلفة فإنها بهذا تكون قد حققت أمرين، الأول أنها جعلت فكر ابن خلدون يتفق مع التفسير المادي للتاريخ، والثاني أنها تكون قد ربطت بين ما قاله ابن خلدون وما قاله كارل ماركس عن مرحلة الشيوعية البدائية وهي أولى المراحل في تطور المجتمع البشري.

٣ - ٢: العوامل الفاعلة للتطور في الفكر الخلدوني

للتعريف على نحو صحيح برأي ابن خلدون نحلل النص الذي كتبه والذي اعتمد عليه في القول بمادية الفكر الخلدوني في تفسير التاريخ. سوف ندرس هذا النص في اللغة التي كتب بها وهي اللغة العربية.

النص:

كتب ابن خلدون الفصل الأول من الكتاب الأول تحت عنوان: في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات مايلي:

«الأولى في أن الاجتماع الإنساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدينة في إصلاحهم وهو معنى العمران وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه. فلابد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف وكذلك يحتاج كل منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه» (ص٤١-٤٢).

---

(١) المرجع نفسه، ص١٩٥.

هذا هو نص ابن خلدون عن حاجة البشر للتعاون وللاجتماع معاً وكذلك للتخصص. نقدم تحليلاً لهذا النص بهدف اكتشاف النظرية الخلدونية في تفسير التاريخ.

٣ - ٢- ١ : يبدأ ابن خلدون كتابته عن حاجة الإنسان للاجتماع بالآتي: «إن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله». هذه الفقرة تعطي النتيجة التالية: رأي ابن خلدون عن حاجة الإنسان للاجتماع يبدأ بأساس إيماني وهو أن الله سبحانه هو خالق الإنسان بحاجاته وانفعالاته . هذه النتيجة تترتب عليها نتيجة أخرى هي : أن تفسير ابن خلدون للتاريخ أحد مكوناته أو عناصره الداخلة فيه الإيمان بالله وبالتالي فإن الله هو الخالق الذي يبدأ به التطور.

هذه النتيجة تجعل رأي ابن خلدون في تفسير تطور التاريخ يفارق كلية الفلسفة المادية. الفلسفة المادية مؤسسة على أن قوى الانتاج خالقة لعلاقات الانتاج، أي أن المادة خالقة، وليس هذا فحسب بل هي قادرة على التطوير الذاتي لنفسها، وبعبارة الذين عرضوا اقتصادياً هذه الفلسفة: تخضع عمليات الانتاج الاجتماعية لتطور ذاتي . . يعنى أنها تخضع لميل لتغيير ما يتعلق بها من اقتصاد أو اجتماع أو غيره[1]. الفلسفة المادية منفصلة كلية عن الإيمان بالله بينما الفلسفة الخلدونية مؤسسة بالكامل على الإيمان بالله.

٣ - ٢- ٢ : بعد أن أعطى ابن خلدون أمثلة لقصور الإنسان عن توفير كل احتياجاته اللازمة لحياته بنفسه كتب الآتي: «. . فلابد من اجتماع القُدَر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل لهم القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف» يشير ابن خلدون في هذا النص إلى دور العامل الاقتصادي. والمطلوب أن نتعرف على هذا الدور الذي يؤديه هذا العامل

(١) Schumpeter, J., History of Economic Analysis , Georg Allen and Unwin, London, 1954.P.439.

الاقتصادي. لا يدل النص على أن العامل الاقتصادي خالق للتطور وإنما يدل على أنه محفز للتخصص. النص يشير إلى أن التخصص وتقسيم العمل كان شاغل ابن خلدون، واعتقد أن حل المشكلة الاقتصادية يكمن في التخصص.

جمع ما جاء في الفقرة(٣-٢-١) مع ما جاء في الفقرة(٣-٢-٢) يعطي النتيجة التالية: الخالق للتطور هو الله سبحانه وتعالى ، أما العامل الاقتصادي فيعمل على تنظيم التخصص وتقسيم العمل، وتنظيم التخصص وتقسيم العمل لا يصنف على أنه خلق وإنما هو ترتيب للأعمال الاقتصادية.

٣-٢-٢ : جاء في النص السابق لابن خلدون ما يلي: «ولما كان العدوان طبيعياً في الحيوان جعل لكل واحد منها عضواً يختص بمدافعته ما يصل إليه من عادية غيره وجعل للإنسان عوضاً من ذلك كله الفكر واليد». هذه الفقرة لابن خلدون تضيف عنصراً جديداً إلى رأيه في تفسير التاريخ هذا العنصر هو فكر الإنسان. الفكر يعمل على التطور.

٣-٢-٣: جمع ما جاء في الفقرات الثلاث السابقة معاً يعطي النتيجة التالية: الخالق للتطور هو الله سبحانه وتعالى. وبعد الخلق يجيء الفكر والعامل الاقتصادي لترتيب عملية التطور. ولكل منهما مجاله في العمل. العامل الاقتصادي يعمل على تنظيم التخصص وتقسيم العمل، فدوره لا يصنف على أنه خلق وإنما ترتيب للأعمال الاقتصادية.

يمكن إعادة صياغة النتيجة السابقة على النحو الآتي:-

الله خالق للتطور ، ثم يجيء فكر الإنسان ومعه العامل المادي لترتيب وتنظيم التطور. على هذا فإن نظرية ابن خلدون في تفسير التاريخ تكون مشتملة على الإيمان بالله والفكر والعامل المادي. وهي بهذا تغاير كلية فلسفة هيجل المثالية حيث الفكر وحده وفلسفة ماركس المادية حيث العامل الاقتصادي وحده.

٤ : مراحل تطور المجتمعات عند ابن خلدون وخصائص كل مرحلة

٤ - ١ : مراحل التطور تعتبر لازمة من لوازم تفسير التطور التاريخي. الفكر الأوروبي يعتقد أن مراحل التطور دخلت إلى دراسات المذهبية الاقتصادية أولاً بالمساهمة التي قدمها ماركس حيث قسم التاريخ الإنساني إلي مراحل؛ الشيوعية البدائية والاقطاع والرأسمالية ثم الاشتراكية كمرحلة انتقالية إلى الشيوعية التي اعتبرها ماركس المحطة الأخيرة لتطور تاريخ الإنسان. مساهمة ماركس في دراسة المراحل تحسب للفلسفة المادية في تفسير التاريخ، أي للماركسية. معروف أن مساهمة ماركس جاءت في القرن التاسع عشر.

المذهبية الرأسمالية دخلت متأخراً بفترة طويلة إلى موضوع مراحل التطور، مساهمة روسو تمثل المساهمة المعتبرة في هذا الموضوع. معروف أن مساهمته ترجع إلى القرن العشرين.

٤-٢: مراحل التطور موضوع رئيسي في كتاب المقدمة لابن خلدون لقد شغل فقرات عديدة. الفقرات التالية مثال لهذا الاهتمام:

- فصل بعنوان: في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة (ص١٧٢-١٧٤).
- فصل بعنوان: في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها (١٧٤-١٧٥) .
- فصل بعنوان: في أطوار الدولة واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الأطوار(١٧٥-١٧٦).
- فصل بعنوان: في أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرزق لأهلها. .(ص٣٦٠-٣٦٢).

في هذه الفقرات وفي غيرها كتب ابن خلدون عن نوعين من مراحل التطور. الأول : مراحل تطور المجتمع ككل، والمتغير الرئيسي في هذا النوع من المراحل حالة المجتمع الاقتصادية والثقافية وغير ذلك. النوع الثاني مراحل

تطور الدولة ويعني بها السلطة الحاكمة، والمتغير الرئيسي في هذا النوع من المراحل القوة السياسية.

أولاً : مراحل تطور المجتمعات في الفكر الخلدوني ثلاث: مرحلة البداوة ، ومرحلة الحضارة ، ومرحلة الهرم.

كتب ابن خلدون تحت عنوان في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة:

« إعلم أن هذه الأطوار طبيعية للدول فإن الغلب الذي يكون به الملك إنما هو بالعصبية وبما يتبعها من شدة البأس وتعود الافتراس ولا يكون ذلك غالباً إلا مع البداوة فطور الدولة من أولها بداوة ثم إذا حصل الملك تبعه الرفه واتساع الأحوال والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضاً ويتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف وما تتلون من العوائد فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك» ص١٧٢.

ثانياً : كتب ابن خلدون بتفصيلات واسعة وفي مواضع عديدة عن خصائص كل مرحلة من المراحل الثلاث المشارة إليها، كما كتب عن العوامل الفاعلة في كل مرحلة.

في فصل بعنوان في أن أجيال البدو والحضر طبيعية كتب ابن خلدون عن خصائص مرحلة البداوة وخصائص مرحلة الحضارة.

النص :

«إعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء هو ضرورة منه ونشيط قبل الحاجي والكمالي فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان، وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولابد إلى البدو لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراً ضرورياً لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والسكن والدفء إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر ثم تزيد أحوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق هؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة» (ص١٢٠).

النص السابق يتضمن خصائص مرحلة البداوة وخصائص مرحلة الحضارة في الفكر الخلدوني.

(أ) خصائص مرحلة البداوة تتلخص في الآتي:

- النشاط الزراعي بدائي ويتلخص في الزراعة والرعي.
- عدم ظهور المدن وتركز السكان في البدو (مناطق غير حضرية)
- انخفاض مستوى المعيشة ووقوفه عند حد الضروري للعجز عما وراء ذلك.
- وجود شكل أولي من التخصص وتقسيم العمل.

- وجود درجة كبيرة من التعاون بين أفراد المجتمع لمواجهة حاجات المعاش الضرورية.

(ب) مرحلة الحضارة تلي مرحلة البداوة: وخصائص هذه المرحلة في الفكر الخلدوني:

- ارتفاع مستوى المعيشة إلى ما فوق الضروريات، وظهور أنواع من الرفه في المسكن والملبس والمأكل.
- ظهور المدن وإتساعها.
- ظهور الصناعات ، وخاصة صناعة سلع الرفه.
- ظهور مراحل متقدمة من تقسيم العمل والتخصص.
- استكمال صور النشاط الاقتصادي بظهور التجارة، وبهذا تكتمل في مرحلة الحضارة الأنشطة الاقتصادية الثلاثة وهي الزراعة والصناعة والتجارة.

ثالثاً : مرحلة الهرم شغلت فقرات عديدة من مقدمة ابن خلدون. بسبب كثرة الفقرات التي كتب فيها ابن خلدون عن خصائص هذه المرحلة فإننا نقترح أن نقتصر على الإشارة إلى الفقرات التي جاءت بها ثم تلخيص هذه الخصائص.

من الفقرات التي كتب فيها ابن خلدون عن خصائص مرحلة الهرم:

- فصل بعنوان في ضرب المكوس أواخر الدولة (ص٢٨٠-٢٨١)
- فصل بعنوان في أن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا ومفسدة للجباية (ص٢٨١-٢٨٣).
- فصل بعنوان في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية(ص٢٨٦)
- فصل بعنوان في أن الظلم مؤذن بخراب العمران(ص٢٨٦-٢٩٠).
- فصل بعنوان في أن الحجاب كيف يقع في الدول وفي أنه يعظم عند الهرم (ص٢٩٠-٢٩٢).

- فصل بعنوان في انقسام الدولة الواحدة بدولتين (ص٢٩٢-٢٩٣).
- فصل بعنوان في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع(ص٢٩٣-٢٩٤).
- فصل بعنوان في كيفية طروق الخلل إلى الدولة (ص٢٩٤-٢٩٧).

هذه الفقرات كتب فيها ابن خلدون عن مرحلة الهرم باعتبارها المرحلة الثالثة في تطور المجتمعات. وقبل أن نحاول التعريف بخصائص مرحلة الهرم في الفكر الخلدوني نرى الإشارة إلى أن الفقرات السابقة كانت عن تطور المجتمعات وتطور السلطة السياسية الحاكمة، وبالتالي تداخلت فيها العوامل الاقتصادية مع غيرها. سوف نعمل على التعريف بالعوامل الاقتصادية وحدها.

رابعاً : الخصائص الاقتصادية في مرحلة الهرم:

الخاصية الأولى:

- زيادة الجباية أي الضرائب ، وتؤدي زيادة الجباية إلى كساد الأسواق. هذا الكساد مسبب عن فقدان الحافز الاقتصادي، وكذلك ضعف القوة الشرائية في أيدي الناس لقلة ما بقي في أيديهم من دخولهم (ص٢٨٠).

الخاصية الثانية:

- تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي. هذا التدخل يضر بعمل قوى السوق أي يضر بالحرية الاقتصادية وهذا بدوره يضعف الحافز الاقتصادي(ص٢٨١).

الخاصية الثالثة:

- اختلال علاقة الدخل القومي بالإنفاق القومي. يجيء هذا الاختلال من أن الدولة لا تنفق كل ما تحصل عليه، وبالتالي يحدث ما يعرف في الدراسات الاقتصادية الحديثة بالتسرب. ويجيء عندما يكون الإنفاق القومي لفترة أقل من الدخل القومي، ويترتب على هذا أن يقل الناتج في الفترة التالية فيقل

الدخل فيقل الإنفاق. وهكذا تتابع الدورة(ص٢٨٦).

الخاصية الرابعة:

- الظلم الاقتصادي، ويتمثل في العدوان على الناس في أموالهم. هذا الظلم في رأي ابن خلدون يجعل الناس تتوقف عن السعي، أي عن العمل والإنتاج. إن الظلم الاقتصادي يقتل الحافز الاقتصادي . وقد أعطى ابن خلدون أمثلة كثيرة للظلم الاقتصادي (ص٢٨٨-٢٩٠).

* «كل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه، فجباة الأموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة ووبال ذلك كله عائد على الدولةبخراب العمران لا ذهابه الآمال من أهله. واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة من الشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري»(ص٢٨٨).
* «ومن أشد الظلامات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق وذلك أن الأعمال من قبيل المتمولات كما سنبين في باب الرزق، والكسب إنما هو قيم أعمال أهل العمران فإذا مساعيهم وأعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم بل لا مكاسب لهم سواها فإن الرعية المعتملين في العمارة إنما معاشهم ومكسابهم من اعتمالهم ذلك فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا سخريا في معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك وهو متمولهم فدخل عليهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم بل هو معاشهم بالجملة وإن تكرر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العمارة وقعدوا عن السعي فيها جملة فأدى ذلك إلى انخفاض العمران وتخريبه والله

سبحانه أعلم وبه التوفيق»(ص٢٨٩).

* «وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان»(ص٢٨٩) ويواصل ابن خلدون تحليله لهذه الحالة إلى أن يقول: «.. وتجحف برؤوس الأموال ولا يجدون عنها وليجة إلا القعود عن الأسواق لذهاب رؤوس الأموال في جبرها بالأرباح ويتثاقل الواردون من الآفاق لشراء البضائع وبيعها من أجل ذلك فتكسد الأسواق ويبطل معاش الرعايا .. وتنقص جباية السلطان أو تفسد .. ويؤول ذلك إلى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة»(ص٢٩٠).

الخاصية الخامسة: :

- في فصل بعنوان في أن الحجاب كيف يقع في الدول وفي أنه يعظم عند الهرم(ص٢٩٠-٢٩٢) كتب ابن خلدون عن بعض الخصائص السياسية الملازمة لحالة الهرم. ولا نتوقف لتحليلها لأنها غير داخلة في دراساتنا الاقتصادية.

٥ : ابن خلدون وفكرة الحتمية

٥ - ١ : الحتمية بمعنى حتمية انتقال المجتمعات الإنسانية من مرحلة تطورية إلى مرحلة تطورية تالية أحد عناصر النظريات المعاصرة التي تفسر التاريخ. ماركس ومن شايعه أعطوا لفكرة الحتمية طابعاً مذهبياً. عند ماركس التطور محكوم بالصراع بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج. قوى الإنتاج مصطلح يدخل فيه تنظيم وتجميع العمال وتقسيم العمل وخصائص الموارد الطبيعية المتاحة (ندرة أو شحة وطبيعتها)، هذا وغيره يصوغ أسلوب الإنتاج[1].

---

(١) Loucks,W.N.,op.cit, p.87.

علاقات الإنتاج مصطلح يشمل ما يشكل النظم القانونية والسياسية والتي تطابقها أشكال محدودة من الشعور الاجتماعي[1]. الملكية من عناصر علاقات الإنتاج.

في الفلسفة الماركسية قوى الإنتاج هي التي تقود التطور، وهي تخضع لتطور ذاتي ؛ أي داخلي فيها، إنها تخضع لميل لتغيير ما يتعلق بها من اقتصاد أو اجتماع أو غيره[2]. يعني ذلك أن قوى الانتاج تطورها حتمي لا يمكن منعه أو وقف حركته. والتطور في علاقات الانتاج تابع للتطور في قوى الإنتاج. وهكذا تتحدد صيغة حتمية انتقال المجتمعات وتطورها من مرحلة تطورية إلى مرحلة تطورية تالية.

٥- ٢ : بعض الذين قدموا دراسات عن ابن خلدون ناقشوا فكرة الحتمية في فلسفته الدكتور ملحم قربان مؤلف كتاب خلدونيات «قوانين خلدونية» واحد من هؤلاء . اهتمامنا بدراسة الدكتور ملحم ليس موجهاً فحسب إلى رأيه في الحتمية عند ابن خلدون وإنما أيضاً لآراء المفكرين الآخرين الذين جمع آراءهم وتعرض لها بالنقد. من هؤلاء المفكرين الدكتور علي عبدالواحد وافي وايف لاكوست ومحمد عبدالله عنان ومحمد جميل بيهم والدكتور عبدالسلام المسدي[3].

بعض المفكرين الذين عرض الدكتور ملحم قربان آراءهم قالوا بأن ابن خلدون يأخذ بالنظرية الحتمية في التاريخ ومن هؤلاء الدكتور علي عبدالواحد و إيف لاكوست، وقد نقل النتيجة التي توصل إليها إيف لاكوست، وهي التالية: «فلقد توصل ابن خلدون إلى الاقتناع بأن انهيار الأمبراطوريات ليس

(١) دكتور راشد البراوي، تطور الفكر الاقتصادي ، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦، ص١٥٥.

(٢) Schumpeter, J.,op. Cit, p439

(٣) للتعرف على آراء هؤلاء المفكرين عن ابن خلدون والحتمية - انظر:
دكتور ملحم قربان، خلدونيات «قوانين خلدونية» المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م.

عرضياً وإنما هو محتم»[1].

بشأن رأي الدكتور ملحم قربان عن ابن خلدون والحتمية فقد مهد له بالآتي: لا يذهب ابن خلدون إلى أن المراحل بين بداية الدولة -وإذا شئت التعميم بين ولادة إحدى الكائنات الحية- ونهايتها هي محدودة بطريقة حتمية. وهذا ما تتطلبه النظرية الحتمية في التاريخ»[2].

أيضاً قال : «هناك على الأقل ثلاثة احتمالات تتبارى وتتنافس على تفسير التاريخ:

الأول : هو الفوضى -تامة كانت هذه الفوضى أم منقوصة.

الثاني : النظام الذي تتداخل فيه عناصر الحرية من جهة وقوانين السببية والطبيعة من جهة ثانية.

الثالث : الحتمية حيث تنتفي لعبة الحرية ودورها في تسيير ذلك التاريخ.[3]

الدكتور ملحم قربان يرى «أن ابن خلدون، وبالرغم من التفسيرات المتعددة لفكره . . ينتمي إلى الفريق من المفكرين الذين يتبنون الاحتمال الثاني»[4].

٥ -٣ : بعد التعريف بموضوع الحتمية في التاريخ وبآراء بعض المفكرين عن ابن خلدون والحتمية نحاول إعطاء مساهمة في هذا المجال، في هذه المساهمة نناقش عدداً من العناصر التي يمكن بها إعطاء رأي في موضوع ابن خلدون والحتمية التاريخية.

---

(١) المرجع نفسه، ص١٩

(٢) المرجع نفسه، ص١٩

(٣) المرجع نفسه، ص٢٠

(٤) المرجع نفسه، ص٢٠

العنصر الأول : حتمية تتغير بالمشيئة الإلهية

في فصل بعنوان في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع كتب ابن خلدون مايلي:-

قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحداً بعد واحد وبينا أنها تحدث للدولة بالطبع وأنها كلها أمور طبيعية لها وإذا كان الهرم طبيعياً في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية والأمور الطبيعية لا تتبدل وقد يتنبه كثير من أهل الدول ممن له يقظة في السياسة فيرى ما نزل بدولتهم من عواضر الهرم ويظن أنه ممكن الارتفاع فيأخذ نفسه بتلافي الدولة وإصلاح مزاجها عن ذلك الهرم ويحسبه أنه لحقها بتقصير من قبله من أهل الدولة وغفلتهم وليس كذلك فإنها أمور طبيعية للدولة والعوائد هي المانعة له من تلافيها وانظر شأن الأنبياء في إنكار العوائد ومخالفتها لولا التأييد الإلهي والنصر السماوي فاعتبر ذلك ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه ولك أجل كتاب (ص٢٩٣-٣٩٤).

هذا النص يعطي ما نعتبره عنصراً من العناصر التي تشكل رأي ابن خلدون في الحتمية وهو أن الدولة تهرم وهذا من الأمور الطبيعية وهرم الدولة لا يمكن منعه. هذا العنصر على هذا النحو يؤيد القول بأن ابن خلدون يعتقد في الحتمية.

التقدم في تحليل النص يضيف إلى العنصر السابق مايلي: أن ما يعتقد أنه أمور طبيعية فإنها تتغير بالتدخل الإلهي، اعتبار هذه الإضافة يعطي النتيجة التالية: المراحل التاريخية لها سريانها الطبيعي، هذه الطبيعة تخضع للمشيئة الإلهية وتخرق بها، هذه النتيجة على هذا النحو تجعل الحتمية عند ابن خلدون لها تكييف خاص. إنها ليست حتمية مطلقة وإنما حتمية تتغير وتتبدل وفق المشيئة الإلهية.

العنصر الثاني : السنن الإلهية

كتاب المقدمة لابن خلدون فيه تعبير يتكرر على نحو واضح. بل قد يمكن القول أنه أكثر التعابير تكراراً في كتابة ابن خلدون، هذا التعبير هو «سنة الله في خلقه». وقد صاغ ابن خلدون هذا التعبير في صياغات متعددة. من هذه الصياغات.

-«فاعتبر ذلك ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه ولكل أجل كتاب»(ص٢٩٤). كتب ابن خلدون ذلك في نهاية كتابته عن أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع.

- «سنة الله في عباده» (ص٢٨٦) . كتب ابن خلدون ذلك في نهاية تحليله لكيفية حدوث الكساد في الأسواق.

-«والله سبحانه وتعالى مالك الأمور كلها وبيده ملكوت كل شيء» (ص٢٨٠). كتب ابن خلدون ذلك عند تحليله لانتقاص العمران بذهاب الآمال من الاعتمار.

«والله مقدر الليل والنهار، والله خير الرازقين»(ص٢٦٧). كتب ابن خلدون ذلك في نهاية كتابته عن أبهة الملك والسلطان ومذاهب الدول في ذلك.

ما سبق يمثل مجموعة من الصيغ التي استخدمها ابن خلدون وهي كلها تعطي معنى سنة الله في خلقه. ماذا يعني إدخال هذا الأمر، أي السنن الإلهية «في موضوع الحتمية؟. ماركس جعل قوى الانتاج بها ميل ذاتي أي داخلي للتغير. إنها تتغير بذاتها. أما ابن خلدون فإنه جعل الأمور كلها تجري كسنن إلهية.

هذا الأمر يؤدي إلى المفارقة التامة بين فكر ماركس وفكر ابن خلدون. عند ماركس قوى الإنتاج تتطور ولا تحتاج لإله يطورها. أما عند ابن خلدون

فالانتقال من مرحلة تطورية إلى مرحلة تطورية تالية والذي يبدو مُضطرداً فإنه يكون وفق سنة إلهية؛ أي أن الله سبحانه وتعالى خالق الأمور وهي تحمل هذه الخاصية في التطور.

العنصر الثالث : الجدلية بين الإنسان والمادة في فكر ابن خلدون

أ - الجدلية[1] هي العامل الفاعل في النظريات الأوروبية التي حاولت تفسير التاريخ، وتتمايز هذه النظريات حسب طبيعة الجدلية التي تبناها. في جدلية هيجل العقل يعمل على المادة فيطورها، أما في جدلية ماركس فإن المادة تعمل على العقل وتطوره.

ب - استكمال التعرف على نظرية ابن خلدون في تفسير التاريخ يلزمنا أن نناقش موضوع الجدلية وطبيعته في الفكر الخلدوني. ايف لاكوست من الباحثين الذين اهتموا بالجدلية عند ابن خلدون حيث كتب: «وليس بمقدور المرء ألا يكون مأخوذاً بالطابع الجدلي العميق لفكر ابن خلدون فهو كما لاحظنا لا يعتبر مجمل الوقائع بمثابة تكدس عرضي لأشياء منعزلة ومستقلة بل بوصفها مجموعاً من الظواهر المتماسكة، والمرتبط بعضها بالبعض الآخر عضوياً، وتتحدد بالضرورة بشكل متبادل. وهذا التداخل المركب خاضع لعملية تطور لا تقل تعقيداً عن تلك الظاهرات[2].

إذا كان إيف لاكوست يذهب إلى هذا الحد البعيد في التسليم بالجدلية عند ابن خلدون فإن باحثين آخرين رأوا أن ماعند ابن خلدون هو جدلية بالمعنى العام[3].

جـ - نظرية ابن خلدون لاشك أنه يظهر فيها التفاعل بين الوقائع. هذا التفاعل

(١) الجدلية ترجمة لكلمة Dialictique

(٢) إيف لاكوست، العلامة ابن خلدون، ترجمة الدكتور ميشال سليمان، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٧٤م، ص١٨٦.

(٣) دكتور ملحم قربان، مرجع سابق، ص٢٠.

صنفه مفكرون على أنه جدلية Dialictique، وقد نرى التخفيف من المعنى الذي تعنيه الجدلية فنستخدم مصطلح حوارDilaogue وقد نواصل عملية التخفيف فنستخدم مصلح التأثيرEffect . وهذا جانب موضع اتفاق ؛ أي وجود تفاعل. الفكرة الحاسمة في المناقشة تتعلق بتحديد من يؤثر على الآخر: العقل أو المادة؟

عند ابن خلدون التطور نوعان؛ تطور السلطة السياسية وتطور المجتمع. هذا الأمر شديد الوضوح في الفكر الخلدوني. التطور السياسي في الفكر الخلدوني يعمل عليه الإنسان. الإنسان هنا بعقله هو العامل الفاعل في الجدلية أو الحوارية أو التأثيرية. للتدليل على ذلك نحيل إلى ما كتبه ابن خلدون في الفقرات التالية:

- فصل بعنوان في حدوث الدولة وتجددها (ص٢٩٨).
- فصل بعنوان في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة (ص٢٩٨-٣٠١).
- تطور المجتمع بهياكله الإنتاجية يعمل عليه أيضاً عند ابن خلدون الإنسان. يستدل على ذلك بالعناوين الآتية التي استخدمها ابن خلدون وبما كتبه تحتها:
- فصل في أن العمران البشري لابد له من سياسة ينتظم بها أمره (ص٣٠٢-٣١١).
- فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران (ص٢٨٦-٢٩٠).

هذه العناوين في ذاتها وبما كتب تحتها تدل على أن نظرية ابن خلدون في تفسير التاريخ مؤسسة على أن الإنسان هو العامل على التطور وأن المادة بمعنى الهياكل الإنتاجية وغيرها تتطور بعقل الإنسان.

استنتاج عام عن ابن خلدون وفكرة الحتمية

المناقشة السابقة تهيئ أن نعطي الاستنتاج العامل التالي: المجتمعات

خاضعة لـقانون التطور، وتطورها منتظم، ويتم التطور نتيجة تفـاعل سنن إلهية خلقـها الله على طبـيعـة تفاعليـة بحيث يؤدي تفـاعلها إلى تطور منتـظم، وقد يخرق الانتظام في التطور بالمـشيئة الإلهـية، والإنسان هو القوة المحـركة للتطور في المجال الذي تقضي به السنة الإلهية.

نتائج البحث

دراسة كتاب المقدمة لابن خلدون بهدف اكتشاف آرائه في المذهبية الاقتصادية اثبتت الآتي:-

أولاً : ابن خلدون موضع اهتمام كبير من الاقتصاديين ، مسلمين وغير مسلمين ، بل إن الاهتمام به من المفكرين الأوروبيين قديم وواسع.

ثانياً : يعتبر ابن خلدون مؤسس مذهب الحرية الاقتصادي. ولقد أثبت البحث الآتي:

أ - تعرف ابن خلدون على الحرية ببعديها الرئيسيين: حرية التبادل وحرية الإنتاج.

ب - ابن خلدون ضد أن تكون الدولة تاجراً أو منتجاً ، كما أنه ضد استخدام أدوات اقتصادية تخل بعمل السوق، كما تعرف على الآثار السلبية لتدخل الدولة.

ج - فكر ابن خلدون يشبع معيار الاتساق والتآلف في الحرية الاقتصادية. إن فكرته متآلفة في عناصرها لأنه لم يقرر رأياً بشأن حرية عنصر من العناصر الاقتصادية يمكن أن يكون مناقضاً لرأيه في حرية عنصر آخر.

ثالثاً : ابن خلدون بتأصيله لحرية التبادل وحرية الإنتاج يسبق الأوروبيين بأكثر من قرنيين ذلك أن تأصيل الحرية على هذا النحو لم يعرف في أوروبا إلا مع مدرسة الطبيعيين التي ظهرت في منتصف القرن الثامن عشر.

رابعاً : نظرية ابن خلدون في التطور مؤسسة على الآتي:

الله سبحانه وتعالى هو الخالق للتطور، وبعد الخلق يجئ الفكر الإنساني والعامل الاقتصادي لترتيب عملية التطور، ولكل منهما

مجاله في العمل، العامل الاقتصادي يعمل على تنظيم التخصص وتقسيم العمل ، فدوره لا يصنف على أنه خلق وإنما ترتيب للتخصص. بناء على هذا فإن نظرية ابن خلدون في تفسير التاريخ مؤسسة رئيسياً على الإيمان بالله، ثم يجئ الفكر الإنساني والعامل المادي ، وهي بهذا تغاير كلية فلسفة هيجل المثالية حيث يعمل الفكر وحده ، وكذلك تغاير فلسفة ماركس المادية حيث يعمل العامل الاقتصادي وحده.

خامساً : مراحل تطور المجتمعات في الفكر الخلدوني ثلاث: مرحلة البداوة ومرحلة الحضارة ومرحلة الهرم. وقد تعرف ابن خلدون بمنهجية علمية على الخصائص الاقتصادية وغيرها لكل مرحلة.

سادساً: تخضع المجتمعات لقانون التطور وتطورها منتظم. ويحدث التطور نتيجة عمل سنن إلهية خلقها الله سبحانه وتعالى على طبيعة تفاعلية بحيث يؤدي تفاعلها إلى تطور منتظم، ويمكن أن يخرق الانتظام في التطور بالمشيئة الإلهية، والإنسان هو القوة المحركة للتطور في المجال الذي تقضي به السنة الإلهية.

سابعاً : ابن خلدون بآرائه في المذهبية الاقتصادية يسبق الفكر الأوروبي في شقيه المذهبيين المذهبية المؤسسة للرأسمالية والمذهبية المؤسسة للاشتراكية. وهو سبق بأكثر من قرنين. بل إنه يمكن القول أن المذهبية الاقتصادية بشقيها في الفكر الأوروبي تظهر فيها آراء ابن خلدون.